المحاضرة السادسة

توظيف التراث في الرواية العربية

1. في مفهوم التراث :

ترجع لفظة التراث إلى مادة " ورث ، وتحيل بإجماع كل المعاجم إلى ما يكسبه الإنسان نصيب مادي أو معنوي، يتركه السابق للاحق، و يلاحظ تداوليا أن لفظة التراث حديثا ومن خلال الدراسات اللغوية والفكرية والنقدية قد أخرجت من السياق المادي لتعوض بلفظة الميراث في هذا الجانب وتأخذ هي دلالة المعنوي خالصا وذهبت بذلك إلى تعريف التراث بأنه: موروث فكري وثقافي تركه السلف للخلف، والذي " تراكم خلال الأزمنة من التقاليد والعادات والتجارب والخبرات وعلوم وفنون شعب من الشعوب، وهو جزء أساس هوية المجتمع، يوثق علائقه بالأجيال الغابرة التي عملت على تكوين هذا التراث وإغنائه[1]، وبهذا أصبحت لفظة التراث قطبا اصطلاحيا شائعا في حقول معرفية شتى منها الحقل الفكري والنقد الأدبي وعلم الاجتماع وعلم النفس وغيرها .

إن ما يميز التراث هو تحدد حضوره ، وحركته الدائمة ، وانتقاله المستمر من الماضي نحو الحاضر فالمستقبل ، فالتراث من هذه الناحية هو " كائن حي متحرك بصيرورة دائمة هي صيرورة الحياة الواقعية التي ينبثق منها ويحيا فيها ومعها ، وهي بدورها تحيا فيه ومعه ، ولكن بشكل آخر ربما كان شكلها الأرقى ، وربما كان شكلها الرافض لها ، وربما كان تعبيرا عن صراعها هي مع نفسها[2]"، وبذلك يكون التراث جزءا من الحياة . فهو يحضر بكيفية دائمة في كل التمظهرات السلوكية وكل العلاقات البشرية؛ لأنه ببساطة يشكل هوية ومرجع لا يمكن الاستغناء عنه لذلك يكتسي التراث أهميته بالغة في الواقع، فهو عند المبدع هدفا للاستزادة وأداة للتعبير في الوقت نفسه.

وتختلف تعريفات التراث في معناه الاصطلاحي وتتشعب دلالته فهو تارة الماضي بكل بساطة، وتارة العقيدة الدينية، وتارة الإسلام برمته عقيدة وحضارة، وبتعريف أشمل هو ما تراكم خلال الأزمنة من تقاليد وعادات وتجارب وخبرات وفنون في شعب من الشعوب. وهكذا تبتعد الرواية العربية قليلا عن تقليدها للرواية الغربية - التي بدأت تعالج مواضيع بعيدة عن واقعنا العربي- في استثمار موروثها لانتاج رواية فنية لها خصوصية عربية شكلا ومضمونا.

لماذا العودة إلى التراث:

بالحديث عن التراث العربي وسؤال العودة إليه لقراءته عند مفكرينا أو توظيفه للتعبير به وعنه أدبيا عند مبدعين، يمكن القول بأن ترسيخ معالم الهوية التي حاول الاستعمار طمسها كان من أهم الأسباب التي دعت إلى العودة إليه، فالعودة إلى التراث في حياتنا المعاصرة هي جزء من عملية الدفاع عن الذات، وهي عملية مشروعة وتشارك فيها جميع شعوب الأرض، وتبقى بعد ذلك كيفية التعامل مع التراث في العودة إليه، وحدود توظيفه[3]، وبعد هذا السبب يأتي سبب آخر لا يقل أهمية محوره بناء الذات "لأن الارتفاع إلى مستوى

---

(1) جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط1، 1986، ص:63.

(2) حسين مروة، دراسات في ضوء المنهج الواقعي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت-لبنان، دط، دت، ص: 464.

(3) محمد عابد الجابري، مسألة الثقافية في الوطن العربي، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت- لبنان، ط2، 1999، ص: 252.

الحياة المعاصرة في الحالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية كافة ، من جملة ما يتطلب إعادة بناء الذات نفسها ، وإعادة بناء الذات من إعادة بناء التراث[1].

والدعوة مرة أخرى لاستنهاض التراث؛ هذا الإرث الذي يعتز به العربي فهو مصدر قوته وهويته والهامه.. أمام التيارات الغربية التي تصفه بالمتخلف و بالتبعية .

لذلك يعد التراث مقوما من مقومات الذات العربية ووسيلة أساسية للحفاظ على الهوية العربية أمام ضغط التحديات الخارجية، وباعتباره حضور الماضي(التراث) في الحاضر(الرواية المعاصرة) وحضور الأب في الابن، اهتم به الرواة كثيرة ووظفوه في مضامين رواياتهم بكل أشكاله، وهكذا ضمان التواصل بين الازمنة و الأجيال.

2- **بواعث توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة:**

البواعث الواقعية – البواعث الفنية – الحركة الثقافية.(هذا العنصر في مطبوعة ورقية)

3- أشكال توظيف التراث في الرواية العربية

يمكن للرواية أن توظف التراث بأنواعه: العالمي و الوطني و المحلي والعربي.. فالعالمي كالأسطورة والملحمة وهو توظيف فني جمالي ورمزي في الوقت نفسه، بالإضافة إلى توظيف التراث الوطني أو القومي و المحلي سواء كان ماديا أو معنويا فكريا يتعلق بالمعتقدات و العادات والأمثال و الفولكلور..

باختصار يحمل التراث عدة أشكال من أهمها التراث الشعبي والتراث الديني والتراث التاريخي والأسطوري ومن أهمها:

أ- **توظيف السيرة الشعبية :**

تتشابه السيرة الشعبية في التراث العربي مع الملحمة اليونانية من حيث الطول ورواية قصص البطولة ولطالما ارتبط كلاهما بفن الرواية وتشابه معه، حتى عذت الرواية تطورا عن الملحمة اليونانية القديمة، لذلك فقد عادت الرواية العربية إلى تراث السيرة الشعبية من حيث التقرب فيما يتعلق بينهما خاصة الشكل الفني وشخصية البطل، ولغة السيرة الشعبية التي تهتم بالمحسنات اللفظية وغيرها .

-توظيف الشكل الفني العام للسيرة :

ومن أبرز الأمثلة تأثرا في هذا المجال رواية " **ملحمة الحرافيش** " لنجيب محفوظ ، " حيث تتشابه والشكل العام للسيرة ، من حيث ضخامة متنها وكثرة شخصياتها وتعدد أمكنتها ، وامتداد زمانها ، وانقسامها إلى عدد من الأجزاء، يحمل كل جزء عنوانا "[2].

أيضا رواية **تغريبة بني حتحوت** إلى بلاد الجنوب لمجيد طوبيا حيث " تحمل السمات العامة لتغريبة بني هلال ، فقد قسمها الكاتب إلى تسعة عشر جزء، يشكل مجموعها رحلة بني حتحوت إلى بلاد السودان، التي دامت أربعة عشر عاما ، تعرض خلالها أبطال الرواية لما تعرض له بنو هلال في رحلتهم الطويلة إلى تونس ، من مصاعب كثيرة وأهوال عظيمة "[3]

- شخصية بطل السيرة الشعبية :

---

[1] المرجع نفسه والصفحة.

[2] المرجع السابق، ص: 86

[3] المرجع نفسه، ص: 86-87

وأبرز مثال على ذلك الرواية السابقة الذكر لنجيب محفوظ " مملكة الحرافيش " ، حيث أن شخصية عاشور الناجي بطل الرواية " تتقاطع وشخصية بطل السيرة الشعبية في جوائب عديدة، فهو مركز اهتمام السرد، لا في الحكاية الأولى التي تنتهي بموته واختفائه فحسب، بل في سائر الحكايات الأخرى من الرواية أيضا، حيث يستحضر على أنه رمز البطل / الفتوة الذي حكم بالعدل، ووقف إلى جانب الحرافيش والضعفاء من الناس، والمثال الأعلى لاستخدام القوة في سبيل الحق والخير، لا الشر والشيطان ، وهو بذلك يشبه أبطال السير العربية كعنترة ، وسيف بن ذي يزن، والظاهر بيبرس ، من حيث اهتمام الحكي بهذه الشخصيات من بدء السيرة إلى نهايتها، ومن حيث كون هؤلاء الأبطال رمزا للخير والعدل في عالم يصطرع فيه الخير والشر ، والعدل و الظلم.[1]

ب- توظيف النص الديني :

" وظفت الرواية العربية المعاصرة النص الديني بمصادرة القرآنية، والتوراتية والإنجيلية، بالإضافة إلى توظيف الحديث الشريف، والتراتيل الدينية والفكر الديني، ولاسيما فكرة المخلص، والفكر الصوفي، الذي حظي باهتمام عدد الروايات .

وتجلى ذلك خاصة في توظيف القرآن الكريم لما فيه من بلاغة ومجاز ولغة سرد سلسة، خاصة في رواية " النفير والقيامة " لفرج الحوار، حيث استعملت الشخصيات لغة القرآن خاصة شخصية المهدي، ووردت الفاظ دالة على القيامة من القرآن الكريم مثل : الصور، الحافة، القارعة، كما وردت تراكيب مثل: شهد شاهده خلفا سويا ، آية للناظرين.[2]

ج- توظيف الحديث النبوي :

ولا يقتصر توظيف النص الديني على الكتب السماوية بل على الأحاديث النبوية فاقتبس كتاب الرواية من الأحاديث الدينية من الإسناد والمتن معا، كرواية " حدث أبو هريرة قال " لمحمود المسعدي التي نشرها عام 1973 وكتبها عام 1944 ، لذلك فهي تعد أول رواية عربية استعملت الاقتباس الديني، فجاءت الرواية شبيهة بالأحاديث الدينية من حيث الشكل، فكل حديث في الرواية يبدأ بذكر راوي الحديث الذي تعدد في الرواية منهم : أبو المدائن، وأبو هريرة، وأبو سلمة السعدي ، ومعن بن سالم، وكهلان، وثابت القيسي، وأبو عبيدة ، وحرب بن سلمان، وزيادة السعدي .[3]

حبيب مونسي في روايته جلالته الأب الأعظم يضع كل الأحداث في الزمن المستقبلي متصورا ما سيحدث عند حضور المسيح الدجال و الانقلاب الكبير في العالم ككل و العربي بالأخص قبل القيامة مستندا في ذلك إلى النصوص النقلية من القرآن و الحديث بالتفصيل وغرضه هو التذكير و التخويف و الانسان في غفلة من أمره في زمن التكنولوجيا و العولمة.

د - توظيف التراث المحلي :

- **تراث البيئة :**

يوظف التراث الشعبي في معرفة العادات والتقاليد والقيم والفنون والحرف والمهارات، وشتى المعارف الشعبية المتداولة قديما. ويتجلى هذا بقوة في روايات إبراهيم الكوني التي نقلت بيئة الصحراء اللبية وعاداتها وتقاليدها وموروثاتها الخاصة منها التصوف الذي ينتشر في الصحراء كونها المكان المناسب لمثل هذا النشاط الروحي، وأيضا توظيف الأساطير

---

[1] المرجع السابق، ص 89.

[2] المرجع السابق، ص: 142.

[3] المرجع السابق، ص: 148-149

المرتبطة بهذه البيئة الخاصة، ومن هذه الروايات " الوقائع المفقودة من سيرة المجوس"، و " التبر "، و " تزيف الحجر" وغيرها.."[1] كما وظف الروائيون الجزائريون التراث بكثرة في رواياتهم غداة الاستقلال من أمثال الطاهر وطار و ابن هدوقة حبيب السايح

- **الحكايات الشعبية المحلية :**

وظف عديد من كتاب الرواية الحكايات الشعبية المحلية الخاصة ببلدانهم ، ومنهم الجزائري عبد الحميد بن هدوقة الذي وظف قصة " الجازية " الشعبية في روايته " الجازية والدراويش " وهذا انطلاقا من العنوان، ثم موضوع الرواية الذي تحيل قصته على قصة الجازية بشكل رمزي، حيث تدور أحداث الرواية في قرية جزائرية محافظة على تراثها وعاداتها منها الأولياء الصالحين الذين يجب أن يكون عددهم سبعة، والزردة التي تقام لهم ويلتقي فيها النساء مع الرجال، لكن دون أن يقتربوا من بعض، وتقدم الرواية من خلال هذا التوظيف الصراع بين المحافظين والحداثيين، من خلال الطالب الأحمر التقدمي الذي يقدم نموذج الجزائر الحديثة .[2]

بالاضافة إلى توظيف الأمثال الشعبية و اللهجة العامية كما جاء في رواية ريح الجنوب لابن هدوقة و اللاز للطاهر وطار.

كما تتوفر رواية (الحوات والقصر) للطاهر وطار على عناصر التراث الشعبي بشكل كبير وتستلهم حكايات (ألف ليلية وليلة) باعتبارها من أهم المرجعيات الأدبية التي تأثر بها الأدباء.

كما تأثر "وطار" في روايته (الحوات والقصر) بالموروث الديني الإسلامي واستحضر صفات الشخصية الدينية في شخص "علي الحوات" ولمّح إلى القصص القرآنية بإشارته لقصة "يوسف" عليه السلام، وقصة "الإسراء والمعراج". وذكر الكثير من الألفاظ الواردة في القرآن الكريم. حيث صبغ "وطار" مضامين روايته بالتراث الأسطوري والأحداث والخوارق العجائبية. كاشفا من خلال توظيفه للتراث في رواية (الحوات والقصر) عن علاقة الشعب بالسلطة في الوطن العربي، وفضح من وراء سياقتها السياسة القائمة على الفساد والظلم، معتمدا على اللغة البسيطة الخالية من التعقيد المخاطبة للعقلية الشعبية.

- **توظيف الأساطير العالمية:**

كثير من الكتاب يستحضرون الاساطير العالمية و الملاحم المعروفة لأغراض فنية جمالية وأخرى موضوعاتية من أجل المقارنة بين المواقف قديما و حديثا من جهة أو لتفسير بعض الظواهر و المظاهر الاجتماعية بطريقة رمزية من جهة أخرى ومن أمثال هؤلاء نجد حبيب مونسي في روايته مقامات الذاكرة المنسية يوظف أسطورة جلجاميش و قصة السندباد البحري ويستحضر هذه الشخصيات في الزمن المعاصر فيتكلم عن المسكوت عنه من فساد سياسي و تدهور الأوضاع الاجتماعية و تشويه للدين الاسلامي.

لقد تنوعت توظيفات الرواية العربية الحديثة والمعاصرة للتراث بمختلف أنواعه ، بين ما هو شعبي وبين ما هو ديني، وغيرها ، وقدمت تشكيلة عربية محلية غنية أعطت الرواية العربية خصوصية كبيرة.

---

[1] المرجع نفسه، 218،219،220،221

[2] المرجع السابق، ص : 226،227،228،229.